جدل اللغة والفكر

تشكّل اللغة التجربة المستمرة التي يواجه الإنسان من خلالها ذاته والآخر والعالم الخارجي، وهي الأساس الذي يعتمد في بحثه المستمرّ عن المعنى، من خلال دلالات تتضمن هذا المعنى بدون أن تستوفيه، على نحو يجعل من تاريخ اللغة ومن تاريخ الدلالات تاريخ الإنسان ذاته.

تمثّل اللغة واقعا ينفرد به الإنسان، وهي مؤلفة من مجموعة علامات متّفق عليها لأداء التفكير والتواصل: نقصد باللغة نتاجا متجانسا ومؤلفا من علامات ودلالات ينشط حقيقة في فعل الكلام الإنساني". لهذا علميا لا يمكن تصور الفكر من غير لغة، وإن كانت هناك حالات من الفكر الخالص، إلا أن التفكير المفهومي أي المعتمد على المفاهيم لابد وأن يرتبط باللغة.

لهذا اختلفت تعاريف العلماء للغة حيث نجد أهم تعريف شائع لها هو تعريف ابن جني حينما قال:"حدّ اللغة: أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم" حيث نال هذا التعريف شهرة واسعة كونه شمل حقائق مهمة عن اللغة (الطبيعة الصوتية: الصوت اللغوي هو الصورة الحية للغة، ولا تغني الكتابة عن الواقع الصوتي للغة، والصوت المقصود هنا هو الصوت اللغوي لأن الأصوات نوعان عند الإنسان: صوت غريزي فطري، وصوت عرفي اصطلاحي)

الطبيعة الاجتماعية: وظيفة اللغة والأغراض التي تؤديها.

الطبيعة الوظيفية: وظيفة التواصل، هناك من يرى ضرورة التركيز على الجانب الوظيفي للغة، وضرورة التمييز فيه بين عدة مستويات أو وظائف، لأن للغة وظائف عدة.ومن بين وظائف اللغة: الوظيفة التواصلية سواء بلغة طبيعية أم بلغة اصطناعية التي يتقاسمها الإنسان والحيوان.

وهناك وظيفة أخرى لا توجد إلا عند الإنسان هي الوظيفة التصويرية أو التمثيلية أو المفهومية، أي تلك الوظيفة التي تقوم بها اللغة الإنسانية عندما تعمد إلى وصف الأشياء أو العالم بشكل مجرد.

لكن التعريف لم تتوقف عند هذا الحد، هناك تعريفات للغويين محدثين منهم:

1/ تعريف دي سوسير: هي "نظام من الرموز الصوتية الاصطلاحية في أذهان الجماعة اللغوية يحقق التواصل بينهم، ويكتسبها الفرد سماعا من جماعته".

2/ تعريف (إدوارد سابير) بقوله:"إنها طريقة إنسانية خالصة وغير غريزية لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبات بواسطة نسق من الرموز المولدّة توليدا إراديا" من هنا استنتج سابير أن اللغة لا تتمركز ولا يمكن تحديد تمركزها، لأنها تتألف من علاقة رمزية خاصة، هي علاقة اعتباطية فيزيولوجية، بين جميع العناصر الممكنة للوعي من ناحية، وعناصر منتخبة معينة في الأجهزة السمعية والحركية والمخية والعصبية.

أيهما أسبق الفكر أم اللغة:

يقصد بكلمة فكر عادة هذا النوع من النشاط الذي يجد المثال الجوهري له في الكائنات البشرية، لدرجة أنه من الممكن أن يعدّ السّمة التي تميز هذه الكائنات عن سائر الحيوانات، هذا النوع من النشاط هو الذي تُناط إليه القدرة على التواصل مع الآخرين، وعلى توقّع ما سيحصل. واللغة هي (على وجه الخصوص) حقيقة مادّية (أصوات) يمكن التعرّف عليها لذاتها من حيث هي حقيقة مادية، وبذا يبدو من الواضح أن علاقة ما تربط الفكر باللغة. .(فلسفة اللغة، سيلفان أورو، ترجمة جمال كولوغلي).

اللغة والفكر يرتبطان معا برباط وثيق في نشاط عقلي بحيث لا ينفصل أحدهما عن الآخر، ودون اللغة لا يستطيع العقل أن يصل إلى المراتب العليا من الأفكار النظرية، والمعاني الكلية التي هي من أخصّ وظائف العقل. وللغة دور مهم في عملية التفكير، فالمعاني أو المفاهيم التي يكتسبها الإنسان لابد أن يُرمز إليها برموز تمكّنه من استخدامها في التفكير، والتعبير عنها. والرموز هي الكلمات أو الأعداد أو العلامات التي تصبح بدورها قوالب تُصبّ فيها المعاني؛ حتى يمكن الاحتفاظ بها، ثم الإفادة منها. فالمعاني تظل حائرة في الذهن حتى تستقرّ في رموز ملائمة فتثبت وتتبلور، ويَسهل تذكّرها واستخدامها في التفكير. فدون اللغة يستحيل علينا الاحتفاظ بالمعاني أو توصيلها.

يمكن القول إن الفكر سابق على اللغة بما أننا نعرف أن الأطفال الصغار يمكن لهم أن يعرفوا حالات شعورية واعية بما فيها الإدراك وبعض الأفعال القصدية والرغبات قبل أن يمتلكوا لغة. ولكن بالنسبة للعمليات الذهنية المعقدة، فإن اللغة تكون سابقة على الفكر، لأن الكائن المالك للغة هو الوحيد القادر على أن يكوّن أفكارا وتصورات ذهنية. (الفلسفة واللغة، الزاوي بغورة، ص220)

مراجع المحاضرة:

مدخل إلى فلسفة اللغة، نبيهة قارة.

جدلية اللغة والفكر، محمد محمد داود.

الفلسفة واللغة نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، الزاوي بغورة.

فلسفة اللغة، سيلفان أورو، ترجمة جمال كولوغلي.